صفيّة وبحر يوسف

منى برنس

كان ذلك قبل ظهر سوق يوم الثلاثاء حين افترشتْ «صفيّة» الأرضَ كعادتها، وقد وضعت أمامها مِشَنَّاتٍ* تحوي الكوسى والفاصولياء والخيار، وعبد الله بجانبها، وقد تعرّى نصفُه الأسفل على كومة من القش، والذبابُ يغطّي وجهَه دون أن يأبه لذلك. كان يحرك أطرافه من حين لآخر ويبتسم ثم يغمض عينيه ويظل في حالة ثبات لفترة وجيزة، قبل أن يغفو. تنتبه صفيّة للزبائن، تزن وتبيع وتقبض وتضع النقود في كيسٍ من القماش متسخ ومعلّقٍ في رقبتها... وعندما لا تكون مع صفية فكّة تسأل جاراتها على الرصيف.

هي ونسوة أخريات يأتين من قرية قريبة من الصوفي في الصباح الباكر كلَّ ثلاثاء، ويَسرِبْن بمحاذاة بحر يوسف. صفية تحمل عبد اللّه على كتفها اليُسرى ومشنّاتِ الخضار على رأسها تُسندها بيدها اليمنى، تجاورها النسوةُ الأخريات وقد حملن هنّ أيضاً نصيبهنّ الأسبوعيّ من الخضار من مشنّاتٍ مشابهة.. طيلةَ الطريق يتبادلن أطراف الحديث، يتغامزن ويتضاحكن ويداعبن عبد الله الذي يغوص بأصابعه في مشنات الخضار، فتضربه أمه على مؤخرته في مودّة. وعبد الله هو الولد الوحيد على خمس بنات، لا يناديها إلا باسمها: «فيَّهْ». ولم تكن تتركه بعيداً عنها أبداً، ولم تغفل عيناها عنه... إلا ذلك اليوم.

فعندما حلَّ الظهر واشتدتْ شمسُ ذلك النهار الحار، وضعت صفيّة عبدَ الله في إحدى المشنات، وخلعتْ طرحتها السوداء عن رأسها وغطته بها، وظلت هي بالمنديل المزركش تربط به شعرها الأسود المعقود في ضفيرة طويلة.

قامت صفية من مكانها تبحث عن فكّة.

ظهرتْ سيارةُ «بلدية المحافظة». وفي دقائق كان رجالُ البلدية قد دهسوا ما دهسوا من المشنات والخضار وألقوا ما ألقوا منها في البحر. عدد قليل من الباعة انتبهوا إلى ما يحدث حولهم، فحملوا ما استطاعوا من مشناتهم وَجَرَوْا بها إلى الأزقّة والحواري القريبة.. وخلا الرصيف مؤقتاً. لم يكن هذا بالشيء الجديد على الباعة، فقد اعتادوا أن تأتي البلدية بين الحين والحين وتقوم بإلقاء المشنّات في البحر أو دفعها بالأرجل في عرض الطريق لتدهسها عجلاتُ السيارات وأقدامُ المارة غير المنتبهين. ولذلك فعندما صرختْ صفيّة ولطمتْ خدَّيْها لم يفهم الناس لِمَ تفعل ذلك: «لماذا تولول المرأة هكذا... لقد جُنَّتْ واللّه»، «صفية نفسها ألقت البلديةُ من قبلُ عدةَ مشنات لها ولم تفعل شيئاً من هذا... كل ما قالته: استرْ يا رب، سترك يا كريم». أما اليوم فهي تصرخ وتميل يمينة ويساراً وهي تنادي عبد الله وقد أمسكتْ بطرفَي المنديل المزركش: «يا خرابي يا عبد الله.. أنت اللي حيلتي يا عبد الله. رموه في البحر يا اخواتي.. عبد الله».

تعثرتْ قدماها بين المشنات الملقاة على الأرض وهي تبحث وتدور حولها.. فسقطتْ وجرحتْ ساقها.. نهضتْ تبحث من جديد، والناس من حولها ينظرون إليها في تعجّب: «الوليّه اتجننتْ... بتدوري على ايه يا ستّ عندك... الخضار، كله ساح على بعضه واندهس خلاصْ».

اندفعتْ إلى البحر وعيناها تدوران بين المشنّات، إلى أن وقع بصرها على مشنتها المغطاة بالطرحة السوداء... رأتها عن بعد، كانت المياه قد جرفتها بعيداً.. هرولتْ في اتجاهها وعيناها على المشنة التي بدأت تغوص في قاع البحر، بينما طفتْ بعضُ المشنات الأخرى الأقلّ حملاً، وقبل أن تقفز إلى الماء لحقتها أيدي المارة والباعة الآخرين.. «أنتِ اتجنّنْتِ يا وليّهْ... عايزة تموّتي نفسك عشان شوية خضار.. أستغفر الله العظيم.. استغفري ربك يا وليه»..

«عبدالله... عبدالله».. صرخت صفيّة وهي ترى مِشَنَّتَها تختفي أمام عينيها. لم تتمالك نفسها وارتمت على الرصيف تشدّ شعرها وتضرب على صدرها.. «عبدالله، رموا عبدالله.. في البحر.. رموا عبدالله في البحر.. الواد كان في المشنة، عبدالله كان في المشنة.. ورموا المشنة في البحر.. عبدالله كان في المشنة».

عندئذ ضرب الواقفون كفاً بكف: «لا حول ولا قوة الا باللّه.. لا حول ولا قوة إلا باللّه.. إنّا لله وإنّا إليه راجعون.. خَدْ أمانته يا ست.. ربنا يخلف عليك بغيره.. وربنا يخرب بيوتهم ولاد الكلب دول».

سقطتْ صفية مغشيّاً عليها.. حملها الرجالُ من على رصيف البحر إلى الجانب الآخر من الطريق.. كسرتْ إحدى النسوة بصلةً وقرّبتها من أنف صفيّة وهي تخبط على صدرها، إلى أن قامت صفية... تلفّتتْ بعينين زائغتين حولها.. اعتدلتْ في جلستها وصوّبتْ عينيها المتعبتيْن تجاه البحر، والناس يتمتمون من حولها يحاولون تهدئتها ومؤاساتها، وهي لا ترد على أحد. الذين رأوها على تلك الحال حكوا بأنها كانت تبدو كالتائهة.. كالتي سُحبتْ روحُها على مهل... وقد صمتتْ تماماً..

ظلت على هذه الحال فترةً قصيرةً، ثم اتجهتْ إلى البحر.

القاهرة

---

* ـ المِشنّة (جمعُها: مشنّاتٌ): سلّةٌ كبيرةٌ مصنوعةٌ من أغصان شجر الصفصاف عادةً [وهي كلمةٌ قبطيّة على الأرجح بحسب **مُعجم اللغة العربية المصريّة** للسعيد بدوي ومارتن هايندس]، [**الآداب**].